

ثلاثة دساتير جديدة - أنجلز

فريدريك أنجلز

ماركس، أنجلز، الاعمال الكاملة، المجلد السادس، ص ص ٥٤٠ - ٥٤٤، دار
التقدم، موسكو، ١٩٧٥

ترجمة: سعيد العلمي

ان تنبؤاتنا بشأن انتصار وشيك للبورجوازية قد تحققت في الواقع بسرعة اكثر مما توقعنا ان تحدث. في اقل من اسبوعين تحولت ثلاث ملكيات مطلقة الى بلدان دستورية: الدانمارك، ونابولي، وساردينيا.

لقد تطورت الحركة في ايطاليا بشكل ملحوظ. الدولة البابوية، توسكاني وساردينيا اخذت مكانها على التوالي على رأس الحركة، كل بلد يدفع الآخر ابعد فأبعد، وكل تقدم اتى دائما بتقدم آخر في اعقابه. لقد كان اتحاد الجمارك الايطالي {١} هو الخطوة الاولى باتجاه تشكيل البورجوازية الايطالية، التي اخذت موضع القيادة بشكل واضح في الحركة القومية وباتت في تصادم يومي مع النمسا. لقد حققت البورجوازية تقريبا كل شئ يمكن تحقيقه في ظل ملكية مطلقة، واصبح وجود دستور تمثيلي يوميا ضرورة ملحة اكثر فاكثر بالنسبة لها. ولكن كسب المؤسسات الدستورية - كانت هذه هي الصعوبة تحديدا لدى البورجوازية الايطالية. كان الامراء ممتنعين، ولم تجرؤ البورجوازية على مواجهتهم بشكل تهديدي لانها لم تتشأ ان تلقى بهم في احضان النمسا مرة اخرى. ربما ركن ايطاليوا الاتحاد الجمركي للانتظار طويلا، لولا ان انتهت المعونة فجأة من ناحية لم يتوقعوها - لقد ثارت صقلية، وطردها اهلها باليرمو القوات الملكية خارج المدينة في شجاعة غير مسبوقة،

{باليرمو يسكنها ٢٠٠٠٠٠ هزموا ١٣٠٠٠ رجل. باريس بسكانها المليون هزمت ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ رجل فى ثورة يوليو} وحاول سكان ابروزي، ابوليا وكارابيا القيام بانتفاضة جديدة. نابلي ذاتها استعدت لمعركة، وفرديناند الدموم، ضغط من كل الجهات، بغير امل في تلقى قوات نمساوية، وكان اول الامراء الايطاليين الذي كان عليه ان يمنح دستورا وحرية صحافة كاملة. وصلت الانباء جنوة وتورين، كلا المدينتين طلبتا الا تتلكأ ساردينيا وراء نابلي، وانغمس شارلس البرت في الحركة لحد لم يعد يستطيع فيه الانسحاب، وكان ايضا في حاجة للنقود بسبب التسلح ضد النمسا - مما اضطره للاستسلام للتمثيلات المشددة لتورين وجنوه وان يمنح هو ايضا دستورا. مما لاشك فيه ان توسكاني سوف تلى، وان على بيوس التاسع ان يمنح تنازلات جديدة. لقد احرزت البورجوازية الايطالية انتصارها الحاسم في شوارع باليرمو. انها منتصرة الان، ما يمكن ان يتمخض عن ذلك هو ان يكون استغلال هذا الانتصار فقط في كل الجوانب وتأمين نتائجه ضد النمسا.

ان انتصار البورجوازية الايطالية هو ايضا هزيمة للنمسا. كيف صر مترنيخ العجوز بأسنانه في غضب - الرجل الذى شهد ثورة نابولي آتية من بعيد، الذى توصل مرة بعد اخرى للبابا وتوسكاني للحصول على اذن لقواته بالمرور عبر مناطقهم والذى كان عليه رغم ذلك ان يوقف قواته من الباندوريين والكروات عند نهر البو! اتى اليه من نابولي رسولا بعد آخر، فرديناند، وكوكل، ودل كاريثو كانوا يستغيثون طلبا للمساعدة، ومترنيخ الذى حكم بلا منازع في ايطاليا في ١٨٢٣ و ١٨٣١، لم يستطع ان يفعل شيئا. كان عليه ان ينظر بهدوء وان يرى آخر و اوثق حليف يعتمد عليه يهزم ويهان في ايطاليا، وكل وزن نابلي يوضع في الميزان ضد النمسا بفضل الثورة. وقد كان لديه مائة وخمسون الف رجل منتظرين على نهر البو. ولكن انجلترا كانت هناك، واذا كان النمساويون قد عبروا نهر البو، لكانت هذه علامة احتلال فينيسيا وقصف تريستا - وهكذا فقد كان على شناقي مترنيخ ان ينتظروا وان يراقبوا وبنادقهم في ايديهم بينما تخطف نابولي منهم.

كان سلوك انجلترا في كل الشأن الايطالي دقيقا للغاية. بينما القوى الكبرى الاخرى، فرنسا وكذلك روسيا، قد فعلا كل ما في وسعيهما لدعم مترنيخ، وقد اخذت انجلترا مكانتها منفردة، بمفردها تماما، جانب الحركة الايطالية. ان للبورجوازية الانجليزية اهتماما عظيما لاحباط اتحاد جمركي حمائي نمساوي ايطالي وبالعكس ايجاد اتحاد جمركي ضد النمسا في ايطاليا مؤسس على التجارة الحرة. لهذا السبب فهي تدعم البورجوازية الايطالية، التي تحتاج هي نفسها في الوقت الراهن التجارة الحرة من اجل تطورها، والتي هي لذلك الحليف الطبيعي للبورجوازية الانجليزية.

في نفس الوقت فان النمسا تتسلح. وهذا التسليح يدمر ماليتها تماما. ليس لدى النمسا نقود، وقد اتجهت الى روتشيلد من اجل قرض، وقد اعلن روتشيلد انه لا يريد حربا ولن يقدم اية نقود دعما للحرب. وبالفعل هل هناك أي مصرفي ممن يمكن ان يقدم النقود الى الملكية النمساوية العفنة من اجل حرب قد يدخل فيها بلد مثل انجلترا؟ وهكذا فلا يمكن لمترنيخ ان يعتمد بعد ذلك على البورجوازية. وهو يتجه لامبراطور روسيا الذي اصبح في السنوات الاخيرة رأسماليا كبيرا، بفضل مناجم اقليمي الاورال والتيا و تجارة القمح – الى القيصر الابيض، الذي ساعد بالفعل ذات مرة فريدريك ويليام الرابع مقدما ١٥ مليون روبل فضي، الذي يبدو بصفة عامة انه يتحول الى روتشيلد لدعم كل الملكيات المطلقة المنهارة. لقد قيل ان القيصر نيقولا قد منح ٧٥ مليون – مقابل نسبة روسية، وغنى عن القول ان ذلك بضمان جيد. من اجل الافضل. اذا كان على القيصر ان يغطي نفقات الملكيات البروسية والنمساوية اضافة الى نفقاته الخاصة، اذا بددت نقوده بدون نجاح ضد ايطاليا، فسوف يستنفد كنزه قريبا.

هل ستغامر النمسا بحرب؟ نظن ذلك بصعوبة. ان ماليتها مضطربة، والمجر في حالة اختمار ثوري تام، وبوهيميا ليست آمنة، في ميدان المعركة نفسه، في لومبارديا، رجال العصابات سوف يظهرون في كل مكان. واكثر من أي شئ آخر فان الخوف من انجلترا سوف يكبح مترنيخ. في هذه اللحظة فان السيد بالمرستون

هو اقوى رجل في اوروبا، وقراره يحدد المسألة، وهذه المرة فان قراره قد عرف بوضوح كاف. وفى نهاية الطرف الآخر من اوروبا تماما، في الدانمارك، يموت ملك هو {كريستيان الثامن} يعقد ابنه {فريدريك السابع} الجلف، المرح، مدمن مشروب الشنبص يعقد فورا جمعية من الوجهاء، جمعية من الطبقات للتداول حول دستور عام للدوقيات {شلزويج وهولشتين} والدانمارك. ومن ثم سوف يشين الالمان انفسهم في كل مكان، فعلى الدوقيات ان تعلن انها لا تريد هذا الدستور لان ذلك سوف يعنى انهم سيقطعون من وطنهم الالمانى المشترك.

هذا شديد السخف بالفعل. فان للدوقيتين عددا اقل من السكان للغاية قياسا بالدانمارك، ومع ذلك فان عدد ممثليهم سوف يكون متماثلا. وسوف يكون للغتهم حقوقا متساوية في الجمعية، و في الاوراق الرسمية، في كل شئ. باختصار، يقدم الدانماركيون كل تنازل ممكن للالمان، والالمان يثابرون في عنادهم القومي العبثي. لم يكن الالمان ابدا ذوى تفكير قومي حين تطابقت مصالح القومية مع مصلح التقدم، لقد كانوا دائما كذلك حينما تناقضت مصالح القومية مع التقدم. حينما كان من المهم ان يكونوا ذوى تفكير قومي لعبوا دور الكوسموبوليتانيين، وحينما كان من المهم ان يكونوا ذوى تفكير قومي مباشرة اصبحوا كذلك الى حد العبث. لقد جعلوا من انفسهم موضعا للسخرية في كل الاحوال.

اما ان سكان الدوقيات اكفاء، واكثر تقدما من الدانماركيين – وفى هذه الحالة سوف ترجح كفتهم على الدانمركيين فى مجلس مندوبي الطبقات وما من سبب لديهم للشكوى، واما انهم المان كسالى ويتخلفون وراء الدانماركيين في التطور الصناعي والسياسي، وفى أي من الحالتين فقد باتوا في رعاية الدانماركيين. ولكنه غاية في العبث بالفعل لاناس شلزويج وهولشتين الاقحاح ان يسألوا ٤٠ مليون المانيا ان يساعدهم ضد الدانمركيين وان يرفضوا اتخاذ مواقعهم في ميدان المعركة حيث يمكن لهم ان يقاتلوا بنفس المميزات مثل خصومهم، انه لفي غاية العبث ان يلوذوا بشرطة الاتحاد الكونفيدرالي الالمانى ضد الدستور.

بقدر ما يوجه الدستور الدانمركي ضربة ضد بروسيا يوجه دستور نابولي ضربة ضد النمسا، رغم انه في ذاته ليس الا رد فعل لاجهاض التجربة الدستورية البروسية في ٣ فبراير {٣}. وازافة الى احراجاتها السابقة العديدة نالت الحكومة البروسية الان دولة دستورية جديدة بوصفها احدى جاراتها، وفي نفس الوقت فقدت حاميا مخلصا وحليفا.

بينما اندرجت ايطاليا والدنمارك هكذا في مراتب البلدان الدستورية، فان المانيا تتلأ خلفهم. كل امة تتحرك الى الامام، الامم الاصغر، والاضعف، قادرة دائما على ان تجد موضعا في التعقيدات الاوروبية التي تمكنها بالرغم من جيرانها الرجعيين الكبار من ان تكسب لصالحها مؤسسة حديثة بعد الاخرى. المسألة ان ٤٠ مليون الماني لم يحفظوا انفسهم ابدا. وان كان من الحقيقي انهم لم يعودوا نائمين ولكنهم لا يزالوا يتحدثون ويرغون ويزبدون، ولازال عليهم ان يتحركوا.

ولكن اذا كان على الحكومات الالمانية ان تعلق اية امال كبرى على خوف البورجوازية من الحركة، فسوف يكون معنى هذا انهم يخدعون انفسهم لحد بعيد. الالمان هم آخر من يقفون في الصف لأن ثورتهم سوف تكون مختلفة عن ثورة الصقليين. ان البورجوازي الالمانى والمبتذل يعرفان جيدا ان ورائهما تقف ”بروليتاريا تنمو يوميا وانها في اليوم الذى يعقب الثورة سوف تطرح مطالب مختلفة تماما عما يرغبان فيه“. وهكذا فان البورجوازي الالمانى والمبتذل يسلكان من ثم بطريقة جبانة، غير حاسمة ومتردة – فهما يخافان الصراع ليس بقدر اقل مما يخافان الحكومة.

ان ثورة المانية هي اخطر بما لا يقاس من ثورة في نابولي. في نابولي هناك مواجهة فقط بين النمسا وانجلترا، اما في الثورة الالمانية فان الشرق بكامله والغرب بكامله سوف يتواجهان الواحد مع الآخر. وسوف تحقق الثورة في نابولي هدفها بمجرد اكتساب المؤسسات البورجوازية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، سوف تبدأ الثورة الالمانية بالفعل حينما تكون قد وصلت الى هذا الحد.

لهذا السبب فان الالمان يجب اولا وقبل كل شئ ان يبدوا موضع مساومة بكل ما في الكلمة من معنى في عيون الامم الاخرى كلها، يجب ان يصبحوا، اكثر مما هم بالفعل، اضحوكة كل اوروبا، يجب عليهم ان يضطروا للثورة. ولكنهم عندئذ سوف ينهضون، ويضعون نهاية الحكم الالمانى الرسمى القدر المشوش وبثورة راديكالية يستعيدون شرف المانيا.

هوامش

{١} فى نوفمبر ١٨٤٧ اتفق ملك ساردينيا، والبابا ودوق توسكانيا على ان يعقدوا مؤتمرا للبلدان الايطالية لتأسيس اتحاد جمركي. لى مشروع الاتحاد الجمركي مصالح الدوائر البورجوازية التي جهدت لتوحيد البلاد” من فوق“ في شكل اتحاد للبلدان تحت سلطة البابا او امبراطورية سافوى. على اي حال احبطت هذه الخطة ثورة ١٨٤٨ -٤٩ فى ايطاليا وهزيمتها فى ١٨٤٩.

{٢} قبل ثورة ١٨٤٨ كانت الحركة وسط السكان الالمان فى دوقيتي شلزويج وهولشتاين ضد الدستور المشترك مع الدانمارك (اعلن الدستور على الملأ فى ٢٨ يناير، ١٨٤٨) حركة انفصالية ولم تتجاوز كونها معارضة بورجوازية معتدلة. وقد كان هدفها ان تخلق فى شمال المانيا دولة المانية صغرى اخرى معتمدة على بروسيا. خلال ثورة ١٨٤٨ -١٨٤٩ تغير الوضع. انتقلت الاحداث من المانيا الى الحركة القومية فى شلزويج وهولشتاين طابعا ثوريا تحرريا. الصراع من اجل انفصال هاتين الدوقيتين عن الدانمارك اصبح جزءا متكاملا من الصراع من اجل التوحيد القومي لالمانيا وقد ساندته ماركس وانجلز بحزم.

{٣} الاشارة لمراسيم فريديريك ويلىام الرابع بعقد دايت متحد فى بروسيا.